نحو فجر لغوي زاهر للعربية

أ.د. ياسر إبراهيم الملاح

١) المُقدمة:

في البداية لا مَناصَ من إثارة هذا السؤال الذي يَختلفُ الناسُ في الإجابَة عنه بصراحَة ووضوح وفهْم للحقيقة، وهو: هلْ يوجدُ لدينا نحن، الأمة العربية المعاصرة، مُشكلة لغوية؟ فمن الناس مَن لا يرى عندنا نحن، العربَ المُعاصرين، أيَّ مشكلة لغوية، فنحن نتفاهمُ ونتخاطبُ والحياة تسيرُ بكل ما فيها من نشاط وتفاعل وحركة، ومنهم مَن يذهبُ إلى أن المُشكلة اللغوية العربية قائمَة، وتتفاقمُ يوما بعْد آخر، إلى درجة أنها تهددُ وجودَ اللغة العربية وتماسُكها وشخصيَّتها المَعْروفة. والبحث الذي نتقدمُ به إلى القارئ الكريم يتبنى وجودَ مُشكلة لغوية خطيرة الأبعاد والتأثيرات على اللغة العربية ووجودها ومستقبلها، وعلى مستقبل الحضارة العربية ووُجودها ونموها الطبيعيّ في الحياة الإنسانية بعامة.

وتتمثلُ المشكلة اللغوية العربية المعاصرة في جُمْلة من الأمور سنتناولُ منها ثلاثة هي: الأمرُ الأول ويتمثلُ في الازدواجية اللغوية في الأقطار العربية كافة معَ غلبة العامية المحلية في كل قطر على الاستعمال اللغوي في البيت والمعهد والحياة بعامة. ومما نلحَظه في هذا الأمر صُعوبة التفاهم بين أفراد كلّ قطر وبين إخوانهمْ في الأقطار الأخرى بالألسُن الدارجة، إذ يصعبُ، في أحيان كثيرة، التفاهمُ بين المصريّ وبين الشاميّ، أو بين العراقيّ وبين الجزائريّ، أو بين الخليجيّ وبين المغربيّ، وهكذا. ونتيجة لهذه الغلبة للعامية القطرية أصبحَت الفصْحى لغة غيرَ مألوفة فأضحتْ في مفهوم الكثيرين صَعبة وغيرَ محبوبة ومنفرة. والأمرُ الثاني الانفتاحُ الواسعُ على الثقافات العالمية المتعددة وانتشار لغاتها على ألسنة أعداد كبيرة من العرب بحكم العلاقات الثقافية والسّياحية والتجارية الواسعة بين الأمَم في هذه الأيام. والأمرُ الثالث إخفاق المَحاضن اللغوية العربية الأساسية: المَحضن البيتيّ والمحضن التعليميّ والمحضن المؤسسيّ في تعليم العربية لأبْنائها وتثبيتها في اللسان العربيّ على الرَّغم من إنفاق مَلايين الدنانير في مُؤسسات التربية والتعليم لتحقيق هذه الغاية.

٢) الأنْموذَجُ اللغويّ الخالدُ:

إنّ من أهم نتائج مُقوّمات الشخصية اللغوية العربية الموروثة نجاحَها في صياغة أنموذج لغويّ خالد ارتبط بصياغة حضارة جديدة تتسمُ بالقداسة والعالمية والثبات. وهكذا أصبحَ هذا النموذجُ اللغويّ والحضاريّ قاعدة للوجود العربي والإسلاميّ لتشكيل الوجه الحضاري للأمة الجديدة التي وُجدت لتكونَ محضنا للإنسانية كلها لحفظها من التيه والانحراف، ولتثبيت بنيانها المُتجدد في الحياة البشرية النامية على قواعدَ خلقية وتشريعية تصُونُ البشريّة من السُّقوط في متاهات الحقد والطمع والأنانية الظالمَة والتخلف المُضيع لكرامَة الإنسان وتفرده السياديِّ في إدارة الكون والذي كرّمه الله بالعقل وبالفهم وبالتجاوب مع ما خلقهُ الله من أجله،(وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون) الذاريات٥٦، إلى أنْ يرثَ الله الأرْضَ ومَنْ عليْها.

وَمن أهَم المَعالم في ترْسيخ هذه الشخصية اللغوية الجديدة ومَد جُذورها في الحَياة العربية كلها قديما وحديثا ومُستقبلا ارتباطها بنصوص خالدة صاغتْ شخصيتها الجديدة. ولعلَ من المفروغ منه أن نجدَ خلاصة الشخصية العربية الجاهلية تمثلتْ في هذه الحضارة التي لا حَضارة لها غيرها، ألا وهي حَضارة الكلمَة، وما حملتْه من أشعار وخطب وأمْثال كانت أساسا مُهما لفهْم هذا الكتاب الجديد الذي أنزله الله على رسوله الكريم تبيانا للمنهج الذي يَرتضيه الربُّ، خالقُ الكون والإنسان، للحياة المثالية التي تنجي من الخلل والأوحال وتقودُ إلى الخير والنجاة.

ثمّ شاءَ الله لهذه الأمة أن تكون، وأن ينبريَ لصناعتها وإقامة بنيانها الحضاريِّ نفرٌ من الصحابة الأخيار بقيادة الرسول الكريم، صلى الله عليْه وَسَلمَ، كما شاء

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

اللّه لهذا الرسول أنْ يُدليَ بدلوه في إقامة الصرْح اللغويِّ الذي سيتجَهز لتربية الإنسانية كلها، فكانتْ مساهمته اللغوية المُدْهشة بما أفاض اللّهُ على لسانه من دُررٍ لغويةٍ مدهشة تحملُ في طياتها من التشريع، والخلق الحسن، والحكمة النادرة، والتربية العميقة، والتصوير الفني المُعجز، ما تعجز ألسنتنا عن وصْفه وتقديره لأنه كما وصفه ربُّ العزة في قرآنه العظيم، (وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، علمه شَديدُ القوَى) النجم ٣-٥. كما أسهمَ صحابته الكرامُ ومَنْ عاصرَهم كذلك في تعميق هذا البُنيان اللغويِّ العظيم بما صاغوه من أشعارٍ وقصصٍ وتجاربَ جهادية مدهشة حتى غدتْ هذه المداميكُ المُقدسة من حياة هذه الثلة الرائعة قادرة على حَمْلِ ما يجدُّ عليها من مَداميكَ مُستقبليّة تمثلتْ في إنتاج صرحٍ ثقافيٍّ علميّ مُذهلٍ امتدتْ ثمارُه العلميَّة والثقافيّة والأدبيّة مِنْ شعرٍ ونثرٍ من العصرِ الأمويِّ إلى العصر العباسيِّ إلى العصرِ الحديث وإلى قيام السّاعة.

وقد حمَلت الأجْيالُ التاليَة هذه التجْربة الحَضاريّة اللغويّة والفكريّة والتشريعيّة بحيث أصبحَ امتزاجُ هذه الصُّوى كلها جَسدا حيّا مؤثرا وجذابا، فأقبلتْ شعوبٌ كاملة على التعرُّب والدخول في هذا الدينِ الجديد، ثم دخلتْ في هذا الحُكم الجديد ونسيت تماما ماضيَها اللغويَّ والفكريّ، واتخذت العربيّة لسانا والرسالة الجَديدة منْهاجا. ولمّا لمْ يكنْ من الطبيعي لهذه الشعُوب المتعربة، بعد إسلامها وتعَرُّبها، أنْ تقفَ مكتوفة الأيدي، أخذتْ هذه الشعوبُ المتعربة تبني وتسهم في ازدهارِ الحَضارة الربانية، فكان لها سبق لا مثيلَ له في صناعَة صَرْحٍ حَضاريٍّ ثقافيٍّ أغنى هذه اللغة بتصانيفَ جديدة متنوعة في مُختلفِ مَجالاتِ الفكر الإنسانيِّ، وبأشعارٍ وتفاسيرَ وآدابٍ يعجز المرْءُ عن حَصْرِها.

ومِنْ هذا الصَّرْح الثقافيِّ والفكريّ واللغويّ حافظ العالمُ العربيُّ المعاصرُ على وُجوده وديْمومته، وما زالت حبّاتُ هذا العقدِ الحضاريِّ الفريد مُتناثرة في مَكتباتِ العالم المُعاصرِ بشرقه وغرْبه. إنّ العالمَ العربيَ المُعاصرَ، وريث هذا العقد الحضاريِّ الذي وصفنا بعْضا منه قبلَ قليل، اقتصر في وُجوده المُعاصر على صيانة هذا الصرح وعلى المُحافظة على وجُوده، والتغني بالانتماءِ إليه، لكنه تراجعَ تماما عن مُقومات صناعته ووجوده التي قامت على البناء والتحسين والتطوير والإبداع ونشره للعالمين نشرَ إيمانٍ وفهمٍ عَميقيْن مُرْتبطيْن بقاعدة فكرية ربّانيةٍ حَفظ له وُجُودَه وازدهارَه إلى الأبدِ. ولعلَّ من أخطرِ ما يُهددُ الوجودَ العربيَ المُعاصرَ، وعدم التمكين لانتمائه إلى هذا الصرْح الحَضاريّ المُدْهش، لغة وثقافة، هذا الانفصامُ المُرْبك بين النظرية والتطبيق في حياته اليومية ومؤسساته الرسمية من تعليمية وغير تعليمية، والانحيازُ الكبيرُ إلى النموذج الحَضاري المُهيمن في الوقت الحاضر، أَي الحضارة المادية الغربية، وهو انْحيازٌ أعماه عن رؤية حقيقة انتمائه لهذا الصرْح الحَضاريّ والتعمق في مادته للمُحافظة على طريقة الانتماء والازدهار التي شقها الأجْدادُ بالعمَلِ الدؤوب والثقة المثرية رغم أنه ينظرُ إليه، ويعلم أبناءَه شيئا من نصوصه.

والمُدهش، أننا في كلِ يوْمٍ يُطلُّ علينا من جديد، نجدُ أجْيالا تديرُ دفة أمور الحياة العربية المُعاصرة وتمسك بزمامها، وهي وليدة هذا الانفصام في الشخصية العربية المُعاصرة، تتفنَّنُ في مَسْخ الشخصية اللغوية العربية، وما عادَ عنْدها من هذا المَوْروث الحضاريِّ الفذ إلا صورة ممْسوخة نصفها لا يعرفُ إلا العاميّة ونصفها الآخرُ يَرْطنُ بما لا يُحصى من اللغات الأجنبية، والمُخيفُ أننا قد نصلُ يوما إلى أجيالٍ تجهلُ حَضارتها وتنسلخُ منها غير واعية لما انحدرتْ إليه من واقعٍ محزنٍ مبك على الأطلال.

إنَّ المُلاحظ المُدقّق يَجدُ أنَّ المُجْتمَعات العَرَبيَّة تَخْسَرُ كُلَّ يَوْم مَوْقعا مِنْ مَواقعها الفكْريَّة، وتَخْسَرُ عَلامَة مِنْ عَلامات شخْصيتّها المُميَّزة، وفي هذا ترْكيز كبيرٌ مِنْ أعْدائنا، واسْتجابة جامحَة منّا، حتى تكونَ الطعْنَة قاتلة، وقدْ اسْتغلَّ الأجانبُ اسْتجاباتنا السَّريعَة لأهْدافهمْ، وطوَّعْنا أنفسَنا لقبُول اتّهاماتهمْ، حتى وَصَلَ الأمْرُ بنا إلى أنَّنا نَسْتَشيرُهمْ في مَناهجنا وسياساتنا، وهذا سُلوكٌ مُشينٌ لا يُمْكنُ لأيِّ أمَّةٍ لديْها قسْطٌ بَسيطٌ من العزّة والكَرامَة أنْ تقبَلَ به.

فإذا تَرَكْنا هذا الجانبَ إلى السُّلوك واللباس فإنَّ التحَوُّلَ المُشينَ في مَظهَر الإنْسان العَرَبيّ وسُلوكه، يُؤكدُ الهَزيمَة النَّفسيَّة التي مُنيَتْ بها الأمَّة، ليْسَ في هذيْن الأمْرَيْن فحَسْبُ، بَلْ في أمُورٍ كثيرَة جدا. إنّ الناظرَ إلى الحَياة العَرَبيَّة لا يَجدُها مُخْتلفة عنْ حَياة الأوروبيينَ في أيِّ شيْء، بلْ إنَّ مُجْتمعاتنا أصبحتْ سُوقا اسْتهْلاكيَّة لكلِّ ما يُنْتجُه الأوروبيُّ. وإذا كانَ اللباسُ والمَظهرُ العامُّ، عندَ كثيرٍ من الشعوب، يُشَكلُ محْورا وطنيّا مُهمًّا

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

لا يُفرِّطونَ به، فإنَّ التذويبَ أو الذوبانَ التراثيَّ الوَطنيّ في عالمنا العربيِّ في هذه المَسائلِ وغيْرِها، أصبحَ مَلمَحاً مَلموساً بدأناه في المَدارسِ وفي الجَيْش، ثمَّ امْتدَّ إلى الحَياة كُلها. وإذا كانَ هذا الوَضْعُ قدْ يُغَض النظرُ عنه في مَيْدانِ الرَّجُل، فإنَّ ما امْتَدَّ فيه إلى ألبِسَة المَرْأة لا يُمَكنُ الإقرارُ به، لأنَّه خروجٌ على مَبادئِ الشرْعِ الحَنيف، وإخلال بالشرَف، وخدش للحَياء.

وعلى هذا الوُجود غير المُتوازِن أصبحَ العالمُ العربيُ لا يُحافظ على نمو هذا الصَّرْح الثقافي نمُوا طبيعيا كما كان يفعلُ الأجدادُ، بحيْث تزدادُ أعدادُ الداخلين إلى هذا الوجُود الثقافيِّ كما كان السَّابقون يفعَلون، وذلك بتعرّب شعوب كاملة ودخولها في الحَضارة الجديدة دخولَ اكتِساب وانتماءٍ لتصْبحَ جزءا نشطا مُنتجا من هذا الوجودِ الحَضاريِّ الجديد، ولا هو يَتمثلُ هذا الوجودَ نفسَه ليطمئنَّ إليه، حتى في حياته هو، وكأنما أصْبح مُنكرا له هازئا به هاربا منه يَتوارى منه إذا رآه الآخرون مُتمسكا بحرْفياته، ولقد أصيبَ بهزيمة نفسيّة مُدمِّرة لا يُرتجى من ورائها بناءٌ مُستقبليّ ناجحٌ، ولا صيانة فاعلة لما ورثناهُ عن الأجْداد. إنها صُورة قاتمَة لواقعٍ مُتردٍ، ومن الطبيعيّ جدا أن لا يَصدرَ عَن هذا الواقع المفلس حياة لغوية حيّة أو نموذجٌ حَضاريّ متميز.

وكان لا بُد من التذكير بأن أفعالَ الأمة هذه الأيامَ تمهدُ للانسلاخ من هذه الحضارة أو الخروج منها بإيجاد نموذج ممْسوخ لا يُحافظ على الصُوى التي رسَمها أجْدادُنا لديمومة هذه الحضارة إلى أنْ يرثَ اللّه الأرض ومَن عليْها. إنَّ على الأمةِ الآن، وفي كل عصْرٍ، الالتفافَ بقوة وإدراك حولَ مُقوماتِها الثقافية واللغوية، والمُحافظة الواعية على مَعالم هذه الحضارةِ اللغوية، لأنها تشكلُ روحَها التي تحْفظ لها شخصيّتها الحقيقية، لأنّ أيّ أمة تسْعى إلى الثبات الحضاريّ عبر التاريخ الإنسانيِّ لا بدّ من صياغة روحها الثقافيّة على وجه هذا الكوْكب الذي نحيا عليْه، وبناء جسدها المَدنيّ والعمرانيّ على هذه الروح الثقافية والفكرية، فالشكلُ يتغيرُ ويتبدلُ، ولكن الروحَ الجَوْهر والمَضْمون الفكري باقيان ما بقيَ لهذا الكون من ديْمومة ووجود. إنّ الأمة إذا أرادتْ أنْ يكون لها شخصيّة مُميزة حيّة عبْر أدوارِ التاريخ لا يُمْكن أنْ تنسلخَ من حَضارتها الفكرية وما صدرَ عَن حياتها من عُلوم وآداب وتلتف حولَ هذه الروح اللغوية الْتفافَ الروح بالجَسد لأنَّ هذا هو مَكمنُ الحياة لها، ولديْمومتها الخالدة. إنّ وجودَ نفرٍ لا يُسْتهان بوجوده من أبْناء هذه الأمة، هذه الأيام، يُؤمنُ بإمكانية الانسلاخ من مُقومات الحَضارةِ العربية الإسلامية، ومنها المقومُ اللغويّ، ثم الالتحاق بركب الحضارة الماديّة المُعاصرة، ومُقومها اللغوي، يُمثلُ خطرا داهما لشخصيّتنا الحضارية المُعاصرة، لأنّ هذه الشخصية لن يكونَ لها وجودٌ بدون ارْتباطها بجذور حَضارتنا العريقة ولغتها الخالدة الشريفة.

والعجيبُ الغريبُ أنّ أعداءَ هذه الأمة، على ما هي عليْه من ارتكاسٍ وضعف وتمزق وتناقض حضاريٍّ مُخيف، ما زالوا يرْتجفون منْ ترقب نهضتها والعَوْدة إلى ما كانتْ عليْه من سُلطانٍ حضاريٍّ وعسكريٍّ وثقافيٍّ ولغويّ يؤهلها لقيادة البشرية من جديد.

٣)الاسْتِرْخاءُ والاسْتعْصاء:

إنّ للمشكلة اللغوية العربية المعاصرة معالمَ واضحة لا يُنكرُها البصرُ المُدقق، ولا يهربُ منها العقلُ المُسْتنيرُ إذا أرادَ الوقوفَ على الحقيقة المُرّة والتشخيص الصادق، للشروع في إعْداد الدواء الناجع لهذه المسألة المُستعصية على الحَل في هذه الظروف الدقيقة من حياة الأمّة. والسؤالُ المهمُ الذي يجبُ أنْ نسْألَه لأنفسنا، قبلَ أيِّ انطلاق في قطارِ التصحيح والإصْلاح: هلْ نحن مُقتنعون بالدورِ الذي لعبتْه أمتنا في تاريخ البشرية؟ هل نحنُ مؤمنون برسالتها الفكرية والثقافيّة؟ لقد كانتْ أمتُنا مَنارة هداية وإصلاح وثقافة أخرجت البشرية من ظلمات الكفر والجهل والظلم والوحشية إلى فضاءات الإيمان والعلم والعدل والمدنية، كما صنعت مجتمعات ما زالتْ تتمثل هذه القيم حتى زمننا المعاصر، وما زلنا نرى بأمِّ أعيننا كيْف نقلدُ الأممَ التي ظلمتْنا وسامتْنا خسْفا وهَوانا في كل شيْء، ونترسمُ خطاها في طرائق العيْش، ولم نرَ في حياتها إيمانا ولا عَدْلا، وإنما نرى ظلما وراءَ ظلم وتدْميرا وراء تدْمير، وكانت رائدة للاسْتعْمارِ المسْعور الذي لا يُبْقي للشعوب المستعمرة شيْئا من خيْراتها. وإزاء واقع كهذا، كيفَ يُمكن إيجادُ مَنْ يُخْلصُ النية لسياسة شعْبه وخدمة قضايا أمته؟ ويُخلص لإصْلاح لغته وثقافته وصيانة حضارته من الاندثار والتقوقع؟

إن وجودَ أمْر كهذا مُنكرُ الحُدوث، والدليلُ الملموسُ هو الواقع التاريخي المُعاصر لأمتنا، فهلْ تصلحُ هذه التربَة لاسْتنبات شخصية لغوية كتلك التي تشكلتْ ونبتتْ فيها شخصيتنا اللغوية المَوْروثة التي هي واسطة عِقدنا الحَضاريّ؟ بالطبع لا،

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

والدليلُ ما تمخّضتْ عنه الدراساتُ التي شخصتْ واقعَنا اللغويّ المُعاصرَ. فعلى الرغم من الجُهود الكبيرة والمُكلفة التي تُنْفقها الحُكوماتُ العربية المُعاصِرة على التّعليم، وعلى مُتطلباته بعامة، وعلى تعْليم العربية بخاصَّة، فانظرْ إلى ما تمخضتْ عنه هذه الجهودُ في ما سَأقتبسُه من دراسة علميّة تشخصُ الواقعَ اللغويَّ للعَرَبية في مدارِسنا.

ولاختصارِ هذه الفكرة نوردُ ما قام به فريقٌ من الباحثين، لمِعْرفة خُلاصةِ ما يقومُ به مُعلمو العربية من جُهود، ومدى تأثيرِ هذه الجُهودِ على الحياة اللغوية المُتحصلة عندَ التلاميذ، حيث وردَ في هذه الدراسة ما نصُّه:

"ويُعد إتقان مهارات اللغة العربية لطلبة التعليم الأساسي والثانوي من أكبر التحديات التي تحاول الدول العربية تحقيقه باعتباره مدخلا لتجويد التعليم، ورغمَ الجهودِ التي تبذلُ لتحسين نوعيته، إلا أنه ما زال يعاني العديدَ من المُشكلات، ولعل أبرزها تدني المستوى اللغوي لدى طلبة التعليم الأساسي والثانوي، وهذا ما تؤكده بصورة واضحة نتائج العديد من الدراسات والندوات في بلادنا، فضلا عن الشكوى العامة بين أوساط التربويين والباحثين والمُتخصصين في مجال تعليم اللغة العربية، إضافة إلى الشكوى الصريحة من الأكاديميين والجامعيين التي تشير إلى ضعف المُدْخلات ونوعية إعدادها وإمكانياتها الوافدة من التعليم العام، وفي مقدمة ذلك التدني في المستوى اللغوي".(خضير والخوالدة ومقابلة وبني ياسين،خصائص معلم اللغة العربية الفعال: دراسة مقارنة، ٢٠١٢، ص ١٦٨)

فهذه الحقيقة التي يُعْلنُ عنها هؤلاءِ الباحثون تكادُ تكونُ مُروّعة وصادمة، لأنها تعبرُ عن واقعٍ يُزعمُ أنه عربيّ، ويُزعمُ أنه حريصٌ على العربيةِ، بدليل أن ما ينفق ويرصد من ميزانيات لتعليم العربيّة في المدارس والجامعات يصلُ إلى الملايين من الدنانير، غيْرَ أن النتائج التي تصلُ إليها هذه الجهودُ والميزانياتُ الضخمة على عكسِ المأمولِ تماما، فإذا كان المأمولُ تحقيقَ القوة في لغة التلميذ ليحبَّ لغته، ويحرصَ على التعبير بها نطقا وكتابة، فإن النتائجَ المرْئيّة، بعد البحث والتدقيق، تدني المُسْتوى اللغويّ عند أبنائنا في لغتهم التي من المُفترض أنهم يَعتزون بها ويفخرون، لتحقيق المُواطنة الصَّحيحة، وكأننا نزرعُ العنبَ الحُلوَ لنحصدَ الشوْكَ المُر، ويا لها من فاجعَةٍ لوْ أنّ أحدا من الزّرّاع حصلَ له، في حَقله، كما يحصل وحصلَ لنا في الحَقلِ اللغويِّ. فهذه حَقيقة مَلموسَة ليْستْ من صناعَة الخيالِ والأوْهام، ولكنها نتائجُ علميَّة توَصَّلَ إليها الباحثونَ الجَادون، فإذا كانَ هذا البحْث قدْ أجْراه الدّارسونَ قبْلَ عقد من الزمنِ، على سَبيلِ المثالِ، فهلْ تغيرَّت الحالُ في هذه الأيام التي نحْياها؟ وهل بُنيتْ الاستعْداداتُ والخطط للوُقوف في وجْه هذا الخطرِ الدّاهم للغتنا؟ إني أكادُ أصلُ، بعد هذا، ولأنني من المَعْنيّين بهذا المَوْضوعِ، ومن المُمارسين لتَعْليم العَرَبية، ومنَ المُنافحين عنها، ومنَ المُقاومين لازدرائها وإهْمالها، والداعين إلى تدارُك الأخطار المُحْدقة بها قبْل فوات الأوانِ، أصلُ إلى حُكم مُتطابق مع ما وصلَ إليْه هؤلاء الباحِثون، ورُبمَّا زاد الطينُ بلة بعد هذه السَّنوات التي نشرَ فيها البَحْث.

ولا يحتاجُ الأمرُ إلي رصْدٍ أو جَمْع مَعْلومات، لتأكيد هذه الحَقيقة، بلْ إننا إذا دَققنا في واقعِ البُيوت والأسَر سنجدُ حمى العربية فيها مُسْتباحا تماما، ولا يوجَدُ أيُ غَيْرة عليه، ولا أي دعوة أو توْجيه للعناية به، وافرضْ أنَّ العناية باللغة حَصَلتْ في بيت أو اثنين، فإن هذه العناية تتبددُ في الشارع أو في المَدْرسة. وإذا ذهبْنا إلى واقع المَعاهد، أي المدارس والكليات والجامعات، فإن الأمرَ أسوأ بكثيرٍ إلى درجةِ وجود جيلٍ جديد لا يَرى في تعلم العربية، أو تعليمها، أيَّ فائدة، بلْ إنهمْ يروْن فيه مَضيعة للوقت، ويعتقدون بأنَّ تعلمَ اللغات الأجْنبية أهمُّ بكثيرِ من تعَلم العَرَبية وتعْليمها، وكذلك الأمرُ في الحيَاة الاجْتماعيّة والمُؤسّسات الخدْميّة والإنتاجية، كالمَشافي والمَصانع والشركات والمَصارف. ولعلَّ أكبرَ ما يفجعُ المرءَ في هذه المؤسسات أنَّ منَ المُؤهلات الضرورية للمُتقدم إلى وظيفة في هذه المَجالات إتقانَ لغةٍ أجنبية، لا إتقان لغته العربية؟!؟!

فهلْ بعدَ هذا الواقع المُر من طامّة كهذه الطامّة التي وصَفتْها الدراسة السابقة؟!؟! ويُمْكنُ للمرْءِ أنْ يكتشفَ حقيقة مَلموسَة واضحة للعَيان، وهي أننا نذبحُ أنفسنا بأيدينا دون أدنى التفات من أولي الأمْرِ إلى هذه الجَريمة اللغوية البَشعة التي نقترفها في حُقوق أنفسنا وحُقوق أبنائنا، وتتوالى على هذا النمط أجيالٌ وأجْيالٌ من غيْر أنْ يتحقق الإصْلاحُ اللغويُ المُنتظر. والمُصيبة الكبْرى هي أننا نزعمُ حبَّ العربية واحْترامَها، غيْرَ أننا لا نمارسُها ولا نغارُ عليْها أو نبادر إلى الاعْتناء بها، فجوهرُ الخلل التناقضُ الكبيرُ والانفصامُ الفظيعُ بين النظرية والتطبيق.

والخُلاصة التي يُمكنُ أنْ نراها رأي العين في تشخيص المُشكلة اللغوية العربية أننا أشبهُ بمريض عزيز عليك تلبَّسه مَرضٌ عُضال تحسُّ وتسمعُ آلامَه وأنينَه من هذا المرض، إنه أنت، أو فلذة كبدك، أو أحدُ والديك، أو زوجُك، أو جارك القريب، فماذا أنت فاعلٌ لهذا المريض؟ أتقعدُ أمامه مُتفرجا على واقعه المَرير؟ ومتجرعا لآهاته وآلامه؟ أم تهُبُ بحماسة ونشاط وقوة لإنقاذه من الموت ؟! لا ريْبَ في أن التأنيَ والتفرجَ على واقع كهذا يدعو إلى السخرية والتقزز مما فعلت! وإن الموقفَ السليمَ هو أنْ تهبَ لنجدة هذا المَريض وأنْ تجلبَ له الطبيبَ لمُعالجته، أوْ أنْ تحمله إلى المشفى الذي يمكنُ أن يعتنيَ به ليقدمَ له العلاجَ الشافي. فهذا هو واقعُنا اللغويّ المَرْئي، وليس هناك منْ مُكترث لهذا المرض إلا ما ندرَ، فالبيْتُ يتلوّى منَ الألم اللغويّ، وكذلك المعْهدُ الذي يبْدأ من رياض الأطفال إلى الجامعة، وكذلك الشارعُ والمُؤسسة، ولا أحدَ يكترث لإصْلاح الأمر أو إنقاذ المَريض من وجعه الذي سيقتله. ولهذا من حق بعض المُفكرين أنْ يخاف على مَصير العربية فيتوقع تفسخها وتشرذمَها إلى لغات محليات كثيرة كما حصلَ للاتينية في أوروبا، كما من حَق المُتفرج على مَريض يَتلوّى من الألم أنْ يتوَقعَ نِهايَة مُفجعَة له وهي المَوْتُ الزؤامُ.

٤) العمل والأمل ؟!؟!

يبْدو أنّ الواقعَ مرٌّ مَرارة توصلك إلى اليأس والإحْباط لتنصرفَ عن التفكير في هذه المَسْألة، لأنّ الظروفَ المَعيشية والسياسيّة تشغلُ الإنسانَ العربيّ المعاصرَ عن المَسْألة اللغوية وَغيرها من المَسائل الفكرية والحضارية النظرية. فهذه المَهَمَّة من اخْتصاص العلماءِ والمُثقفين الذين يحسنون التفكير في قضايا الأمة الكبرى، ومنها المسألة اللغوية. وإن من يتتبع ما كتبه المفكرون في هذا الميدان سيجد كما هائلا من الدراسات والبحوث التي صنفتْ في هذا المَجال، فمنها الدراساتُ التي تلبسُ اللون الفكريّ الذي يربط المسْألة اللغوية بنهْضة الأمة، ومنها الدراساتُ المُتخصصة في الميْدان اللغويّ المَحْض، غير أنها تتفقُ جميعا على وجُود واقع لغويّ عربيّ مريض لا يبشرُ بخيْر للعربية، أو بصحة لغوية مُطمْئنة، بحيث تجعلك تطمَئن إلى ولادة واقع لغويٍّ مُستقيم في المُستقبل القريب.

يجبُ أنْ يتغيرَ هذا الواقعُ اللغويُّ العربيُّ المريضُ إلى واقع خال من الأمْراض التي تقتلُ اللغة والإنسانَ ليكون هناك أجيالٌ تحبُّ لغتها وحضارتها وماضيَها العريق لتحقيق أمرين مهمين هما: إيجاد مُناخ لغويّ نظيف يتربّى عليه أبناؤنا، ثم ينطلقُ به هؤلاءِ الأبناءُ إلى الحياة بعامة ومجالاتها الحياتية الواسعة، لميلاد لسانٍ عربيٍّ مُبين مُعاصر. والثديُ الغاذي الذي يقودُ إلى تحقيق هذا الحُلم هو تربية أبنائنا على كنوز حَضارتنا العريقة من القرآن الكريم إلى كلِّ ما كتبَ من أدب في مُختلف المَجالات العلمية والفكرية المُساعدة على التمسُّك بهذا الإرث الحَضاريّ الفريد. وليْسَ هناك مَنْ يستطيعُ تحقيقَ هذا إلا دولة تُخطط لاسْتنبات هذا في الواقع المُعاش ليُصْبحَ حقيقة دائمة في حَياة المُجْتمعات العربية المُعاصرَة بعامَّة.

وليْسَ هذا التصورُ مُتخيّلا أو مُفترَضا، لأنه كان وراءَ إيجادِ ما نفخرُ به، هذه الأيامَ، من إرث لغويّ يَتمثلُ في ما وصَفناه سابقا بالصرْح الثقافيّ والأدبيّ والعلميّ الذي أنتجته الحضارة العربية الإسلامية باللغة العربية فأصبحتْ بهذا لغة حضارة عالمية، لأن الإسلامَ دينٌ مُنْفتحٌ للجَميع، وليْسَ مُقتصرا على قوْم أو جنس أو جغرافيا مُحدَّدة. إذا فالمُخطط حاضرٌ، وثمارُ البُنيانِ مَحسوسة مُتناثرة، هنا وهناك، شاهدة على صحة ما نطرحُ، وعلى اسْتقامة ما نذهبُ إليه وعلى إمْكانية اسْتحْداثه. فما المُعوقُ في بدء العَمل لنشق طريق البناء اللغوي المَنظور لإعادة الكرّة وإحْياء التجربة التي أنتجتْ لنا حَضارة لغويّة لا مثيلَ لها في العالمين؟!؟!

ليْس هُناك ريبٌ في أنّ المُعوّقات كثيرة تشملُ الدولة العربية، والفردَ العربيّ، والتعليمَ العربيّ، والبيتَ العربيَّ، والوالدين العربيين في الأسْرة العربية، والمحيط العالمي الذي نتعايشُ معه هذه الأيام. وعلى الرَّغْم منْ هذا كله، فإنّ الإنسانَ العربيَّ، وما تمَخض عن وجوده من شعُوب مترامية الأطراف، هو المَسْؤولُ الأوّلُ عن كل ما يحْدث، لأن الهزيمة النفسية التي تلبَّسته، في هذه الأيام، جعلتْ منه إنسانا غيرَ مُنتج وغيرَ غيور وغيْرَ مُقاوم لما ينهالُ عليْه من مُسوخ ثقافية وحضارية غبية منْ هنا وهناك، فأصبح لا يملكُ القدرة على الاختيار الذكيّ الذي يجعله يميزُ بيْن ما يفيدُ وما لا يفيدُ، عندما فتحت الأبوابُ على مصاريعها لتصبَّ على عقله أشتاتا من الثقافات لتلويث المُناخ العربيّ اللغويّ وغير اللغويّ، فتسطحت شخصيتنا في كل مجال من مجالات الحياة، وأصبحنا على ما نحن عليه هذه الأيام من تراجع وذيلية وتقليد أعمى لكل قبيح، فاهتزت لغتنا في

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

ألسنتنا وألسنة أبنائنا واهتزت شخصيتنا فلم نعد نميز بين الخطأ والصواب.

وهذا كله وغيرُه لا يمكنُ أنْ يُنتجَ آلة بيتيّة تصنعُ اللغة التي صانها آباؤنا وأمهّاتنا، ولا يُمكنُ أنْ نحْظى بلغة قوية كالتي نطمحُ إليها ونتغنّى بجمالها في مُصنفات صرحنا الثقافيِّ المذخور، لأننا تتلبَّسُنا جُمْلة من الأمْراض الفتَّاكة التي لا يُمكنُ لها أنْ تصْنعَ جيلا يُحافظ على لغتنا وكنوزنا، أو على وُجودنا، أو على عزتنا؟ وأهَمُّ هذه الأمْراض: ضَعْفُ التَرْبيَة البَيْتيَّة والاسْتهانة بالعربيّة، وتدَنّي مُسْتوى التعْليم، والانجرافُ نحْوَ التّغْريب، والهزيمَة النَفسيَّة، وإهْمالُ الدِّين، والإعْلامُ المُضلِّلُ، والفسادُ الماليُّ والإداريُّ. وسنلقي الضوْءَ على بعض هذه الأمراض لنكتشفَ خطورتَها.

أما التربيَة البيْتيَّة والاستهانة بالعربيّة فمن المُجْمَع عليْه، عند أهل الرأي والفكر والنقد الاجتماعيّ، في عَصْرنا، أنَّ البيْت العَرَبيَّ المُعاصرَ غيرُ ناجح في ترْبية النّشْء وإعْداده لمَسْؤوليّة كبيرة تجاهَ لغته وتجاهَ نفسه وتجاهَ أمته، ولا ريْبَ في أنّ هذا التعميمَ يُسْتثنى منه مَنْ يقومونَ بواجبهم في هذا المَجال تجاهَ أبْنائهمْ، وهُمْ نفرٌ لا يُسْتَهانُ به لأنهمْ طليعَة نصْرنا اللغويّ المُنتظر. فالبيتُ العربيُّ بيْتٌ مُمَزقٌ فكريّا وثقافيّا، وليْسَ أمامَ الجيل إجاباتٌ شافيَة عنْ تساؤلات فكريّة وحَضاريّة واجْتماعيّة، لأنهمْ لمْ يُعَدوا لهذا في محْضنهم الطبيعي الأول، وهو الأسْرة، إلا مَنْ عَصَمَ اللّه. ولذلك تجدُ مَنْ في البيتِ منْ أبناء وبنات يتجهون اتجاهات مُختلفة مُتصارعة لا تحقق الوحْدة الفكريّة واللغويّة لأنهمْ لا يَرَوْن النموذجَ القدْوَة الذي يهْديهم إلى الصُّورة المُثلى أمامَهم وفي مُجْتمعهم. وأين هذا البيتُ من البيْت في عصْر الراشدين، أو عصْر الأمَويّين، أو عَصْر العَبّاسيين، إذ كانتْ أسسُ التربية واضحَة ومُتّفقا عليْها، والأهدافُ واضحَة، والوَحْدة البَيْتيّة واضحَة إلا ما نَدَرَ، ولكنّ النتائجَ التي انتهتْ إليْها الأمّة في سُلطانها وثقافتها وعُلمائها وازدهارها تدُلُّ دلالة واضحَة على أنهمْ أعْطوْا وأنتجُوا، ونحْنُ لمْ نصْنعْ شيْئًا مما صَنَعوا، ولم نُحافظ على ما قدَّموه لنا إلا مُحافظة شَكليّة قشْريّة، ولئن اسْتمَرَّ وضعُنا على هذا النحْو، فإننا نُعلن بكل وضوح: إننا في خطر، وإنَّ لغتنا في خطر.

إنَّ أهمَ ما يُرَبَّى عليْه النّشْءُ في البَيْت العربيِّ هو الحفاظ على مَصالحه الذاتيَّة، ولذلك فإنّ هذه الترْبيَة لا تُشجعُه على التضْحية في سَبيل الآخَرينَ، ولا على الاتحاد مع الآخرين، بلْ تؤكدُ على أنانيّته، وسبب هذا أننا ارْتضينا لأجيالنا تربية مُسْتعارة من أعدائنا المتربصين بنا بعدَ أن ارتضينا منهم وصمنا بالتخلف. قالوا لنا: إنكم متخلفون لأنكم تحفظون أبناءكم القرآن، ولأنكم لا ترسمون خُطى الحضارة الغربية المتنوّرة، فقلنا: آمين، فكانت الطامّة الكبرى لشخصيتنا ووجودنا كله.

ومن هذه التربية البيتية والتربوية انبثقتْ ظاهرَة الاسْتهانة بالعربية التي تنْتشرُ شيْئًا فشيْئًا في المُجْتمعات العربية، وأكثرُ العناصر المُتورِّطة في هذه الظاهرَة هُمُ الشبابُ والشاباتُ في المَدارس والجامعات. وهناك مظاهر كثيرة على هذه الاسْتهانة يمكننا تعداد الكثير منها في الحياة المعاصرة، ونذكر منها النفور من التخصص في العربية، بلْ والتقزز منه، لأنه لا يشي بأنك modern أو متفرنج معاصر، كما يقولون. ولهذا دَلالة خَطيرَة، فكيْفَ يَكْرَهُ المَرْءُ لغَتَهُ ؟!؟ ومنْ عَجَب أنْ يَكْرَهَ المَرْءُ نفسَهُ وذاتَهُ ! ولوْ يَرى شبابُنا، وهُمْ يَرَوْنَ ذلك، ما تُنْفقهُ الأمَمُ الأخْرى من المال على نشر لغاتهمْ بين الشعوب، عنْ طريق افْتتاح المَراكز الثقافيّة وعنْ طريق السِّفارات، لخَجلوا منْ أنْفسهمْ، عنْدما لا يُقيمونَ وزْنا للغتهمْ العربية.

ومما يُؤسَف له، هذه الأيامَ، شيوعُ لغة الأربيزيّة، بين الشباب، وهيَ لغَة كَتبَتْ عنها بعضُ الصُّحُف المصْريّة، وقدْ قرأتُ عنها في أحَد أعْداد جَريدَة " القدس" الفلسْطينيّة؛ إنّها لغَة تَجْمَعُ بيْن الطعْم العَرَبيِّ والطعْم الإنْجليزيّ، فلا هي لغةَ عَرَبيّة خالصَة، ولا هيَ لغة إنْجليزيّة خالصَة، ولكنّها خليطٌ من اللغتَيْن، وأكثرُ ما يَشيعُ اسْتعْمالها بيْن المُتخاطبين عبْر الشبكة العنْكبوتيّة (INTERNET)، فإذا كانتْ هذه اللغة العَجيبَة سَتَحْتَلُّ مَكانة العربية فإنّ هذا الاحْتلالَ سيَكونُ الطامَّة الكبْرى، فبَعْضُ العالمين لهذه الظاهرة توَقع أنْ تقودَ إلى اضْمحْلال العربية أو اندثارها. وقد يَحْدث هذا يَوْماً ما وَلوْ بعْدَ حين، لأنّ مَنْ سَيُديرُ دفة الحَياة القادمَة همْ هؤلاء الشبابُ والشاباتُ !! فمنهمْ سَيكونُ المُديرُ والوزيرُ والطبيبُ والرَّئيسُ أوْ غير ذلك من هذه المَراكز الحَسّاسَة.

هذان واقعان مُتناقضان:

واقعٌ خَلصَتْ فيه النيّة فعَمِل فيه أهله عَمَلا صالحا، وحفظوا إرْثَهم اللغويَّ عن أجْدادهمْ في الجاهلية، ثم أضيفتْ إليه إضافة ربّانيّة صَقلتْ وجودَه وأعطتْه

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

مَعْنًى حضاريا مُميزا، ثمَّ أطلقَتْ يَدُ الأبْناء والأحْفاد من التابعينَ وتابعيهمْ في البناء والرُّقيِّ، فكانَ عُلماءُ، وكانتْ مُؤلفات، وكانت إبداعاتٌ لا حَصْرَ لها في مُخْتلف ألوانِ الفكْرِ الإنسانيِّ، على المُسْتوى الشعوريِّ، والفكْرِ التّجْريديّ، والعلمِ التطبيقيّ. ثمّ دَخلَتْ في العَرَبية شعوبٌ كثيرة، فأعْطى هذا التحَوّلُ اللغويُّ الأمّة حَيَويّة وطاقات أثرَتْ تفكيرَها واتجاهاتها وعمّقتْ تدْبيرَها للحَياة وأغْنَتْ تجاربَها، فما أنْ مَضَتْ على هذا النّشاط خمْسَة قرون حتى غَدَت الحَضارة العربيّة صَرْحاً شامخاً مُتَطاوِلَ البُنْيان، ويَمْتلئُ هذا الصَّرْحُ بالمَضامين الخالدَة التي قدَّمَتْ للإنْسان العربيّ والمُسْلم بخاصة، والإنسانية بعامّة، تجْرِبَة حَضاريّة فريدَة إيجابيّة إنْسانيّة عَمودُها الفقريّ السّلامُ والحُبُّ والخيرُ والعملُ المُفيدُ، ولا يُمْكِنُ لأحَدٍ من الناس إنكارُ دوْرها في الحَياة الإنسانيّة، أوْ أنْ يتنكرَ لإيجابيتها. وقدْ كانَ هذا في كنف سُلطانٍ قويٍّ، وجبروت يُحققُ النصرَ تلوَ النصْر، ويُقيمُ وزْنا للأدَب واللغَة والعلم، فكانَ لنا أمّة عَزيزة واثقة بنفسها ذاتُ رسالة خالدَة تكدُّ ليْلَ نهارَ لإخراج نفسها وإخراج الأمَمِ منَ الظلمات إلى النور، ومنْ ظلمِ الإنْسانِ إلى عدْلِ الديّان، ومن كَدَرِ الباطِلِ إلى صَفاء الحَقِّ، وليس لهم في هذا كله لسان إلا العربية!!!

وَواقعٌ آخرُ مُختلفٌ نَشهَدُه هذه الأيامَ في العالم العربيّ الإسْلاميّ، إنهُ عالمٌ يتسمُ بجُمودِ العَقلِ وتوقفه عن العَطاء المَأمول والإبْداع المَسْئول، إنّه عالمٌ يبالغُ في الاسْتهْلاك في كُلِ شَيْءٍ، إنّه عالمٌ اخْتزَنَ تُراثَ الأجْداد في خزائنَ مُقفلة وأخذ يتَسَوّلُ من العالمين الغذاءَ الروحيَّ والغذاءَ العَقليَّ والغذاءَ المادِّيَّ، وَيتسَوَّلُ القوانينَ والأنْظمَة، إنّه عالمٌ يُتقنُ التغنيَ بأمْجاد الماضي وهُوَ بَعيدٌ عنها البُعْدَ كله، فيُقدمُ بذلك نموذجاً للتناقض النفسيِّ المُهين، إنّه عالمٌ يَدْخُلُ في هزائمَ تتلوها هزائمُ، فمنْ هذا الواقع طمعَتْ الأمَمُ الأخْرى في ثرْوَاتنا، وألحَتْ على اسْتعْبادنا، ونَحْن بهذا قانعونَ غافلونَ غير مُحْتجين على ما يَدورُ إلا مَنْ عَصَمَ اللهُ من الزيْغ والضَّلال.

نعمْ، هذان واقعان مُخْتلفان، فأيْنَ الثرى من الثريّا !!!

وَلا يَظنّنَّ ظانٌّ أنّنا لا نَرى الأمُورَ الإيجابيّة، فهُناكَ إيجابيّاتٌ لا بَأسَ بها، وهُناك منْ يَعْمَلُ بجدٍ ونَشاط، وهُناك مَنْ يَرْفعُ صَوْتَه بالنُّصْح وبالنقد، وهُناك مَن تَمْتلئُ جوارحُه بالأمَلِ في المُستقبل، وليْسَ عنْده ذرّةٌ منْ يَأس. وفي مَيْدانِ اللغة العربية بالذات نجدُ وزارات التعْليم لا تدَّخرُ وُسْعاً في التأكيد على جَعْلِ اللغة العربية هي لغة التعْليم ولغة الكتاب المَدْرَسيِّ، وهذا في حَدِّ ذاته مَعْلَمٌ مُهمٌّ جدا لإعْلانِ بَيارقِ الانتماء والوَحْدَة والمُنْطلق والمَصير المُشترك لهذه الأمَّة. إنَّ في حَياة أمَّتنا هذه الأيامَ حَرَكة قويَّة لأسْباب نهْضة مَلموسَة، ولكنَّ النّشْءَ في هذه النّهْضَة تائهٌ، ويفتقرُ إلى أنْ تُزْرَعَ فيه العزةُ، كما يَفتقرُ إلى القدْوَة المُؤثرَة سَواءٌ أكانَ هذا في قمَّة الهَرَم أمْ كانَ في القاعدَة، ولا يَجوزُ بأيِّ حالٍ منَ الأحْوال أنْ يَسْتمرَّ التّيهُ في أجْيالنا أكثرَ ممّا كانَ. إنّ هُناكَ مَطلباً يُلحُّ علَيْنا جَميعاً هذه الأيامَ: كفى ما كانَ منْ ضَياع، وهامشيّة، وتَحَجُّر، واسْتخْذاءٍ للأجْنَبيّ والمُحْتل، ولا مَناصَ منْ إيجادِ الذات إيجاداً مُثمراً، والتصَدُّرُ المُنْتجُ في العالم، ولا بُدَّ منْ إطلاق الحُريّات المَسْئولة، ولا بُدَّ مِنَ العزة الإيجابيّة التي تَحْتَرمُ الإنْسانَ وحُقوقهُ وكرامَتَهُ، ولابُدَّ للَيْلِ اللغة العربية أنْ ينْجَليَ، ولا بُدَّ لقيْدِها أنْ يَنْكَسِرَ!؟!؟

وأما التعليمُ فلا يخْتلفُ إثنان كذلك على أنّ التعليمَ في العالم العربيّ مُتدن بصورة مُخيفة وخطرة، وإذا كانتْ الولاياتُ المُتحدَة الأميركيّة قدْ أعلنَتْ، في تقرير لها، عام ١٩٨٣ أنّها "أمّة في خَطر" (انظرْ: تقرير " أمّة في خطر" "A Nation at Risk")، لحَصْرها مُشكلات الأمة الأميركية في التعليم، ونوعيته الرديئة التي يَتلقاها الطلبَة، وانْخفاض مُسْتواهم العلميِّ والثقافيِّ، واتهام المُعلم نفسه بالمَسْئوليَّة عن هذا، فإنّ صُدورَ تقريرٍ كهذا التقرير، منْ أعْظم دوْلة وأغْنى دوْلة في العالم، يدلُّ على مُحاسَبة ومُراجَعَة للذات وصَراحَة مُنْقطعَة النظير. إنَّ أمّتنا أحْوجُ منْ غيْرها إلى هذه المُحاسَبَة والمُراجَعَة والنقد الذاتيِّ، لأنَّ تقاريرَ الأمَم المُتحدَة، حولَ التنمية الإنسانية في العالم العَرَبيِّ، عام ٢٠٠١ و ٢٠٠٢(انظرْ: تقارير الأمم المتحدة حول التنمية الإنسانية العربية ٢٠٠١و٢٠٠٢ و ٢٠٠٣و ٢٠٠٤)، وما قبلَ هذين التاريخيْن، وما بَعْدَهما في التعْليم وغيْره، تشيرُ إلى أنَّ العالمَ العربيَّ وَصَلَ إلى مُسْتوىً من التخلف لا يُطاقُ. وعلى الرَّغْم من أنَّ بَعْضَ التقارير تشيرُ إلى بَعْض التحَسُّن من حَيْث الإنفاقُ على التعْليم، وارتفاعُ نسْبَة طلبَة المَرْحَلة الابْتدائيّة في المَدارس، فإنّ أحَدَ هذه التقارير أوردَ أنّ هناك عَشْرَة ملايين طفل في العالم العَرَبيِّ بين سنّي ٦ و ١٥ سنة همْ خارجَ نظام التعْليم، وأنَّ نسْبة الأمِّيَّة في هذا العالم ما زالتْ مُرْتفعَة، وأنّ هناك أدلة كثيرَة على انْحطاط نوْعيّة التعْليم، وهذا كله يَعْني أنَّ اكتسابَ المَعْرفة وبناءَ

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

القدرات العلميَّة والإبداعيَّة لأبنائنا مُتدنية جدّا.

ومِمّا يَجْدُرُ ذكرُه هنا، أنّ التقريرَ الأميركيَّ الذي ذكرْناه سابقا، أكدَ على أنَّ مِنْ أسْباب النهوض بالتعليم ورَفع المُسْتوى الأكاديميِّ للمُتعلمينَ في أميركا، الاهتمامَ باللغة الإنجليزية ورفعَ شأنها عندَ الطلبة والمُدرِّسينَ. أفليس يَجْدُرُ بنا أنْ نُعلنَ مِنْ هذا المِنْبر، أنَّ مِنْ أهم أسْباب النهْضة بالتعْليم في بلادنا العَرَبيّة، وارْتفاع المُسْتوى الأكاديميِّ المُتدَنّي في المَدْرَسة والجامعَة، الاهتمامَ باللغة العربية لأنّها آلَة الفكر والتّفكير، ولأنّ اللغات الأخْرى أدَواتُ اتصال مَعْرِفيّ فقط !؟!

وإذا كانَ التقريرُ الأميركيُّ يُحَمِّلُ مَسْؤوليَّة تدَنّي مُسْتوى الطلبَة الأكاديميِّ للمُعَلم نفْسه، فإننا نحن، في العالم العَرَبيّ، نحَمِّلُ المَسْؤوليّة كذلك للمُعَلم، على الرَّغْم مِنْ أنَّ المُعلمَ العَرَبيَّ ليْسَ في أوْضاع مُريحَة من الناحيَة الاقتصاديَّة والمُجْتمعيَّة والمِهْنيَّة، غيرَ أنَّ هذا لا يُعْفيه مِنَ المَسْؤوليَّة. فالمُسْتوى الحَقيقيُّ لطلبَتنا في اللغة العربية مُسْتوىً مُتَدَنٍ جدا، ولا يُمْكِنُ لأحَد أنْ يَرْفعَ هذا المُسْتوى أو يُصْلحَه إلا المُعَلِّمُ، لأنه هُوَ مَنْ يُديرُ عَجَلة التربيَة في المَيْدان، وهو الذي يُمَثلُ القدْوَة لهذا الطالب الذي هو في مَرْحَلة بناء.

وأما التغريب فله شأنه الخاص به. فعِنْدَما احْتلَّ نابُليونُ مِصْرَ سنة ١٧٩٨ (انظرْ: حول مواقف المصريين من حملة نابليون ما كتبه الدكتور عبد المحسن طه بدر في تمهيد لبحثه:"تطور الرواية العربية الحديثة في مصر(١٨٧٠-١٩٣٨) (ص ص١٢-١٨)، ورَأى الناسُ ما عِنْدَ الفرَنْسيين مِن أدَوات الحَضارَة، انْبَهَروا بما رَأوْا فأفقدَهمْ ما رَأوْه صَوابَهم وتَوازُنَهمْ وثِقتَهُمْ بأنْفسهمْ، وانْتهوْا إلى أنَّ هؤلاء الفرنْسيّين لا يُمْكِنُ مُوازَنَتهم بالعالَمَيْن العَرَبيّ والإسْلاميّ، فهُمْ مُتفوقون في المَدَنيّة، وهذان العالَمان مُتخلفان جدا. ومِنَ الطبيعيّ أنْ يفيقَ هذان العالمان يَوْما مِنَ الذهول، ثم يَجدان النفسَ والهُوية والقدرات، غيْرَ أنَّ ما حَصَلَ، لافْتقاد القيادات الواعيَة، أنّ هذيْن العالَمَيْن انْجَرَفا انْجرافا خَطِرا نحْوَ التغْريب، وأخذ القادَةُ، الذين يُسَيِّرون دَفة الأمور في هذه المُجْتمَعات، يَعْتقدون أنَّ مَسارَ النهْضَة لا بُدَّ أنْ يَبْدَأ مِنْ أوروبا، وقصَّة البعْثات العلميَّة التي كان يُوفِدُها مُحَمَّد عليّ إلى فرَنْسا مَشْهورَةٌ، كَما أخَذَت المُجْتمَعاتُ تتفلتُ شيْئا فشيْئا من المَظاهر المُمَيِّزة لها حَضاريا كما حَصَلَ في مَوْضوع المَرْأة ولباسها.

إنَّ هذا المَسارَ الخطرَ أوْجَدَ أجْيالا، من أبْناء العَرَب والمُسْلمين، لا تثقُ بنفسها ولا تَرى الحَضارَة حَضارَة إلا وَفْقَ النَّمَط الأوروبيِّ، ولقدْ بَلَغَ الحدُّ بالأوروبيين أنَّهُمْ يُخَطِّطونَ للتعْليم في بلادنا، وهذا ما جَعَلَ الأمورَ تسيرُ سيْرا مَقلوباً، بدلا من المَسارِ المُسْتقيم لها. وأمْرٌ آخرُ تطرَّقْنا إليْه قبْل قليل حَوْلَ أولويات الأمور في نهضة التَّعْليم عندَ الأميركيينَ العنايَة باللغة الوَطنية، ولم يَذكروا شيْئا عن الاهتمام باللغات الأجْنبيَّة، كما نفعلُ نحن، والعَجيبُ أنَّ الاهْتمامَ بالحاسوب اعْتبروه آخرَ عامل من عَوامل النهْضة، ولكن الأمورَ عِنْدَنا، اعتبرت الاهتمامَ بالحاسُوب أوَّلا، والاهْتمامَ باللغة الأجْنبيَّة ثانيا، وأهْمَلت اللغة العربيّة، وهيَ اللغَة الوَطَنيّة، إهْمالاً بَيِّنا.

إنَّ إسْنادَ أمُورِنا إلى الأجْنَبيّ حتى لا تكادَ مَصْلحَة وَطنيّة في بلادنا تَخْلو من وُجوده أمْرٌ مُؤسِفٌ جدا، ولنْ يَرْتدَّ علينا إلّا بالخَيْبَة. وإذا كانَ هناكَ ما يُسَوِّغ الاسْتفادَة من الأجْنَبيّ في الأمُور التي يَتفوَّقُ فيها علينا، كالصِّناعة والتِّقْنيَة، فليْسَ مَقبولا أبَداً أنْ يُخَططَ لتَرْبيَة أبْنائنا، لأنَّ التربيَة روحُ الأمَّة، ولا أدْري كيْفَ تَقْبَلُ أمَّة من الأمَم أنْ يَصُوغ لها عَدُوُّها الأجْنبيُّ روحَها (انظر: حول هذه الفكرة: مقالة بعنوان:" أمة في خطر: مداخلة عن مناهج التعليم في الوطن العربي" بقلم: سالم مبارك الفلق، انظرْ: (alfalagg@yahoo.com). ومن العَجيب أنَّنا، في العالم العَرَبيّ، لا نَطْمَئنُّ لأحَد من الأجَانب إلا لِمَنْ زرَع لنا خنْجَراً في صُدورِنا، وَعَمّقَ وُجودَه في هذه الصُّدور.

وأمّا الهزيمة النفسية فلها خطرُها الخاصُّ بها، فالضعْفَ الذي يُعاني منه العالَمان العَرَبيّ والإسْلاميّ، في مُخْتلف المَجالات الاجْتماعيَّة والسِّياسيَّة والاقتصادية والثقافيَّة لا ينمُّ عنْ شكيمة قويّة ونفس راغبَة في التحدّي، كما كانَ أجْدادُ هذيْن العالَمَيْن فيما مَضى من الأزْمان. كما أنَّه لا يَنمُّ عنْ عَزْم على البناء ومُواجَهَة الصُّعوبات، بَلْ إنَّه يَنمُّ عنْ نفسية مُسْتَحْذيَة مَهزومة مُصابة بالدُّوار. وهذا مَظهَرٌ مَلموسٌ في الإعْجاب بالأجْنبيّ، فكلُّ ما هُوَ أجْنبيٌّ مِنْ طعام أوْ لباس أوْ صناعَة مُفضلٌ على كلِّ ما تنتجُه أيْدي العَرَب. ويُمْكنُ لكل منّا إذا دَقق في هذا السُّلوك أنْ يَلمَسَه بكُلِّ وُضوح، فمِنَ المُخْجل أنّني عنْدَما أتجهُ إلى أيِّ حانوت لابْتاع شيْئا، فإنَّ التاجرَ يُبادرُ إلى تَرْغيبي في البضاعَة، فيقولُ لي: هذا أجْنَبيّ. لقدْ لَمَسْتُ هذا في فلسْطينَ، وفي مِصْرَ، كما

لَمَسْتُ هذا في إقبال طلبَة الجامعات على المَأكولات والمَلبوسات الأجْنبيّة، وهؤلاء همْ مَنْ سَيُديرون دَفّة الأمور في المُستقبل القريب.

فإذا كانتْ وقفتنا أمامَ مَوْضوع اللغة فإنَّ الأمْرَ أخطرُ. إنّ أغْلبيّة الآباء والأمّهات في العالم العَرَبيّ يُصفقونَ لنَجاحات أبنائهمْ في اللغة الأجْنَبيّة، ولكنَّهمْ لا يُعيرونَ إخْفاقات أبنائهمْ في اللغة العربية أيَّ اهْتمام. إنّ اللغة الوَطنيّة مَلمَحٌ منْ مَلامح هويّة الأمَّة وشخصيَّتها الوَطَنيَّة، واللغة ليْسَتْ مُجردَ أصْوات وألفاظ، ولكنّها آلة تَفْكير، ومُسْتَوْدَعُ حَضارَة الأمَّة وثقافتها، ومَعْلمٌ من مَعالم الانْتماء. وإنّي لَيَحْزنني أنْ أرْوِيَ عنْ أساتذَة جامعات لا يَتخاطبونَ معَ أبْنائهمْ في البيوت إلا بلغة أجْنبيّة، بحُجة تقويَة هؤلاء الأبْناء فيها، ولأنّها لغة الحَضارَة المُهَيْمنة هذه الأيّامَ، ولغة العلم والتخصُّصات التي ترْفعُ مُسْتوى الإنْسان في المُجْتمَع وفي المُسْتقبَل، وَلأنّها السَّبيلُ إلى الدِّراسَة في أميركا وبريطانيا، كما ذكرَ لي أحَدُهمْ. قدْ يَكونُ هذا النفرُ قليلاً، ولكنَّه سيَكونُ مُؤثرا على عامّة الناس الذين ما زالوا مُرابطينَ على ثغور الأمّة حمايَة لشخْصيّتها ومُقوّماتها. ولقدْ بَدَأنا نلمَسُ هؤلاء البُسَطاءَ يُعْلنونَ عنْ رغْبتهمْ في تفوُّق أوْلادهمْ في اللغَة الأجْنَبيَّة، ويَسْعَوْنَ إلى وَضْع أبْنائهمْ في المَدارس التي تؤهّلهمْ لذلك، ومن المؤسف أنَّ هذه المَدارسَ يَقومُ عليْها إدارات أجْنبيَّة.

وإذا كانَ هذا كُله مُحْزنا فإنَّ ما يُحْزنُ أكثر ما يتصلُ باللغة العربية وأساتذَتها. إنّي لا أفْهَمُ لماذا يُخاطبُ أسْتاذُ اللغة العربية طلبَتَه بالعامّيّة؟ ولماذا يَسْمحُ بمُخاطبَتهم إياه بالعامّيَّة كذلك؟ أنْ يَكْتَسبَ المُتعلمونَ اللغة الفصيحَة هَدَفٌ من أهْداف تدريس اللغة العربية، فكيْفَ يَهْدمُ المُدَرِّسُ أهْدافهُ التي يَسْعى إلى تَحْقيقها بيَدَيْه !؟! وكَيْفَ يَسْمَحُ هذا المُعلمُ لنفسه أنْ يُشوِّهَ النصوصَ الجَميلة المَأخوذة من الشعر أو القرآن أو الحَديث أو غيْرها، وهيَ قمَّة البَلاغَة والفَصاحَة، فيَشرَحُها بالعاميَّة؟ وإذا كان مُعَلمُ اللغة العربية يفعَلُ هذا في تخصُّصه، فكيْفَ نجْرُؤ على مُطالبَة أسْتاذ التاريخ أو الجغرافيا أو الرياضيات أو غيرهمْ باسْتخْدام الفصْحى في مُخاطبَته طلبَتَه؟! لا رَيْبَ في أنَّ مَنْ يفعَلُ هذا كُلَّهُ، وهُوَ يَعْلمُ أهَمِّيَّة اللغة، مَحْكومٌ عليْه بالهَزيمَة النفْسيَّة، وإنَّ مَنْ يَحْملُ هذه الهزيمَة لا يَرْقى إلى مُسْتوى بناء أبْناء الأمَّة، وإلى مسْتوى التضحيَة من أجْلها، بلْ إلى الدِّفاع عَنها.

٥) الفجْرُ اللغويُّ الجَديدُ !؟!؟

إذا وُجدتْ لغة عربية ممتازة فهناك شُروط مناسبة لهذا في البيت والمعهد والحياة بأبعادها كافة.

وعليْه فإننا إذا تخلصْنا من الآفات التي بَسَطناها سابقا فلا مَناصَ من ولادة فجْر لغويٍّ جديد. فالحَلُّ لمُشكلة اللغة العربية يَكمُنُ بأيْدينا نحنُ أهلَ هذه اللغَة. فبالإضافة إلى أهَمّيَة وُجود مُجْتمَع قويّ الخلق والانْتماء الصّادق، والعلم النافع، والمُعاصَرَة الذكيّة الحَذرَة بدون ذوَبان أوْ اسْتخذاء، ووجود سُلطان يَزْرَعُ العزة في نفوس أبنائنا والرَّهبَة في قلوب أعْدائنا، فإنّه لا مَهربَ من صناعة التربة المُناسبة لاستنبات لغة قوية قادرة على تقديم الفجْر اللغويّ الجديد الذي يَصِلُ الحاضرَ اللغويّ المُرَّ بالماضي اللغويِّ العَريق لترسّم خطاه والسَّيْر على هُداه. ولا مَناصَ من إدراك أنّ الحَلّ العَمَليّ لمُعْضلتنا اللغوية يكمُن بيَد الأسرة العربية وبيد المُعلم الذي يَسْتلهمُ صَرْحَنا اللغويَّ المَوْروث وبيد مؤسساتنا بعامة.

لقد نجح أجدادُنا في صياغة شخصية لغوية عربية ناجحة، فهي مَصْدرُ اعتزازنا وفخْرنا، وهي مُقومٌ أساسيٌّ من مُقومات وجودنا الحضاريِّ والفكريّ وامتدادنا التاريخيّ، وإنما كان ذلك كذلك لأنهم آمنوا بمُفردات هذا الوجود الحضاريِّ وتشربوه، ثمَّ انطلقوا منه في دَعْوتهم الناسَ لاكتسابه والانتماء إليْه، فكان إخلاصُهم لحَضارتهمْ ومفردات هذه الحضارة الفكرية واللغوية مَضْربَ الأمْثال ومَبْعث فخر وجاذبية واعتزاز، فلمّا رأت الشعوبُ المفتوحة هذا اندهشت له، واستطابت هذا السلوك، فأقبلت على تعَلم العرَبية والدخول في دين الله أفواجا. لقدْ لعبَ أجْدادُنا في إكساب العربية للآخرين ونشر دين الله دوْرَ القدْوة المُؤثرة فكانت النتيجة المُدهشة انتشارَ العربية وانتشارَ الإسْلام انتشارا قويّا.

إذا أردْنا أنْ نُحقق ما حَققوا فلا مَناصَ من السيْر على منْهجهم في التربية، وفي المادّة التربوية، مع الانفتاح الواعي على الآخرين لاسْتعارَة ما يتناسَبُ مع مادة تربيتنا دون أنْ نسْمحَ بالتفريط بأيّ نقطة من نقاط بناء الشخصية الإسلاميّة. لقدْ كانوا يُركزون على حفظ القرآن!!! فما الذي يمنعُنا من هذا التركيز، وفي ذلك فليتنافس المُتنافسون؟؟!! فمن هذا الحفظ كانت قوة العَربية في العُقول والنفوس والأدب والكتابة العلمية، وإنك لهذا لا

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

تجدُ كتابا من الكتب المُؤلفة في الزمن القديم فيه خطأ لغويٌّ واحدٌ، بيْنما نجدُ الكتبَ المؤلفات المعاصرَة مَليئة بالأخطاء اللغوية والإملائية والتركيبية لأنَّ القاعدة التي بُنِيَ عليْها أي تعلم العربية وتعْليمَها قاعدة ضعيفة لا تقفُ على أساس لغوي قرآني كما كانَ يفعلُ أجدادُنا، ومن هذه القاعدة اللغويّة المتينة كان بناءُ القاعدة الفكرية الصّلبة لأنها قائمة على الإيمان بالله وكتابه وسُنة رسوله، فتجعلُ الفردَ صاحبَ عقيدة لا تهْتزُ أبدا.

إنّ اللغة كالنبتة، فإذا أردْتَ الحصولَ على نبات جيد فلا مناصَ من إيجاد تربة جيدة حافلة بكل العناصر التي تغذي النباتَ وتجَوّدُه، وكذلك اللغة فلا مناصَ للحصول على لغة قوية من تهيئة تربة جيدة تغذي اللغة وتنميها وتحافظ عليْها.

كانت القاعدة التعليميّة والتربويّة عند أجدادنا تقومُ على بناء إنسان ممتاز تتمثلُ في شخصيته مقوماتُ الحضارة العربية الإسلاميّة ليكونَ بذلك نموذجا مُمثلا لهذه الحضارة أينما حلَّ واتجَهَ، ولهذا كان جَذابا ومُؤثرا في غيْره. ويعودُ هذا إلى أنَّ الإسلامَ أذكى في نفوس العَرب جَذوة المعرفة فدفعهمْ بقوة إلى العلم والتعلم، فلم يَمْضِ على قيام دولة الإسْلام قرْنٌ ونصف قرن حتى ألْوا بما عندَ الأمم الأخرى من عُلوم وثقافات، فمكنتْ لهم وضعَ أصولِ عددٍ كبيرٍ من العُلوم اللغوية والتاريخية والفلكية والرياضية. ونهضَ التعْليمُ نهْضة واسعَة فكان الناشئ يتعلمُ في الكتاتيب القراءة والكتابة وسُورا من القرآن الكريم وشيْئا من الحساب وبعْضا من الأشعار والأمثال والسّنن والفرائض والنحْو والعَروض. وكان المُعلمون صنفين: صنفا للعامّة وآخرَ للخاصّة. وقد لعبت المساجدُ بحلقاتها العلميّة دوْرا قويّا في نشْر العلم والمعْرفة، ويُخيَّلُ إلى المَرْء، بعدَ الاطلاع على النشاط المَعْرفيّ الذي كان في الدولة العبّاسية، أنَّ المَعْرفة والثقافة كانتْ مُلقاة في كل مَكان ويُمكنُ لأيِّ انسان الارتشافُ منها بدون أيِّ مُقابل ماديّ وكأن التعلمَ والتعليمَ كانا بالمَجّان تماما.(شوقي ضيف، العصر العباسي الأول ص ص ٩٨-١٠٩)

إنَّ حاجتَنا إلى الميلاد اللغويِّ الجديد كحاجتنا إلى الميلاد الجديد في كل ناحية من نواحي الحياة. لا مَناصَ من اضطلاع البيْت بمسؤولية لغوية جادة، إذ لمْ يعدْ مقبولا بتاتا أنْ يتنحى الوالدانِ عن واجباتهما في صناعة لغة أبنائهم، فالبيْت هو المحْضن الأوّلُ الذي تتشكلُ فيه الرؤيَة اللغوية والحسُ اللغويُّ والنبضُ اللغويّ والتشكلُ اللغويُّ، فإذا كان ذلك كذلك فكيفَ نُعْفي البيْتَ منْ واجباته في هذا المجال؟! إن هذه الخليّة الاجْتماعية الأولى في الحَياة المجْتمعية هي الأساسُ في التشكيل اللغويِّ للطفل، فمنه يَسْتمدُّ حُبَّ اللغة، ومنه يستمدُّ مادتَها الأساسيّة كالأصْوات والمفردات والجُمل والمعاني، ومن الأم بخاصَّة يأخذ اللبَنَ اللغويَّ الصّافيَ الصحيّ كما يأخذ اللبنَ الطبيعيَّ الصافيَ لبناء جَسَد مُعافى ولغة لا تشوبُها الأدْواء. وليْسَ يَخفى عليْنا أنَّ المَحاضنَ اللغويّة التاليَة للمَحْضن البيْتيّ ما هي إلا مُعززاتٌ وعواملُ تنمية وتقوية لتثبتَ اللغة وتتقوّى في نفس الفرْد حتى يكونَ قادرا على القيام بواجبه في الحَياة.

فإذا اسْتوتْ سوقُ المُتعلم في البيْت، كان دورُ المَدرسة مُقتصرا على حُسْن إدارة التحْصيل اللغويّ. إنَّ أحدَ أسْباب ضعف التحْصيل اللغويّ عندَ أبنائنا في هذه الأيّام يتمَثلُ في فقر البيْت العربيّ الحديث للغة القويّة المُعينة لأبنائها على البناء، واسْتواء طرق التحصيل المعزز للنمُو اللغويّ. وما أبْدَعَ المُبْدعون من أجْدادنا إلا لأنَّ البيْتَ العربيَّ كان مَصْدرا من مَصادر العَطاء اللغويّ المُمْتاز، فالأمُّ بارعَة في اللغة، وربما كانتْ مَصْدَرا منْ مصادر الاكتساب اللغويِّ للآخرين، وكذلك الوالدُ وكذلك الأبناءُ، وكذلك المجتمعُ كله، فكان المتعلمُ يكتسبُ اللغة المُستقيمة حيثما كان في أيِّ بيئة من بيئات المُجْتَمَع.

هذا هو النمَط الذي ندْعو إليْه الآن، وإنَّ أيَّ تصور للإصْلاح اللغويّ الحديث لا يسْلكُ هذا الطريقَ الذي رسَمْنا مَعالمَه على نحو مما كان يفعَله أولئك البُنَاةُ الأوائلُ، فإنه تصَوّرٌ يُكررُ النمط الذي أضاعَ الجُهْدَ والمالَ، ولكننا لمْ نحصّلْ منه شيْئا مما نطمحُ إليْه في الإصْلاح اللغويّ الراشد.

٦) الخاتمة:

أما بعدُ، فإنه لما ثبتَ لدينْا أنَّ التربية اللغوية المُعاصرة فاشلة في إكساب أولادنا اللغة العربية الصّحيحة، فلا مَناصَ من التفكير القويّ والصحيح في إعادة النظر في هذه التربية، والبحث عن البدائل المضمونة لوضْع أقدام أبْنائنا على الطريق الصحيح الذي يُكسبُهم اللغة الفصيحة والرأيَ السديد. وإنّ من الحكمة، إذا أردنا أن يكون للعربية أمَلٌ في حياة زاهرة مشرقة كما كان أمرها عند أجْدادنا، أن نترسمَ خطى هؤلاء الأجْداد، فهمْ مَنْ نجحوا في هذه السبيل، وأوْرثونا دُرة لغوية نفتخرُ بها. ولا مَناص لدينْا من أن نجعلَ

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

هذا الأملَ، أي إعادة الحياة للعربية، ديدَنَنا في البيت والمَعهد والحياة بعامّة، حتى نُمكن لهذا الفجْر اللغوي الذي يُلِح علينا صباحَ مساءَ من الظهورِ والإشراق ونفتحُ الطريق لطاقات أبنائنا بالظهور والإزدهار في الشعْر والنثر والبحث العلميّ فتكون بذلك أولَ من أسْدى للعربية فرصَ الحياة والنمو المُعاصر والعطاء الفكريّ والثقافيّ المُتجدد لتشرقَ أمتُنا من جَديد على هذا العالم الذي نعيشُ فيه. وقدْ تسْألني كيْفَ السبيلُ إلى تحقق هذا الأمْر!!؟؟فأجيبُ إنها إرادة الإنسان العربيّ الجديد في السيْر على طريق إثبات الوجود في هذا العالم المُتلاطم الأمْواج بشخصية حضارية جديدة سفينتنا فيه شخصيَّة لغتنا العربية القوية. وأغتنمُ هذه الفرْصَة المُمْتلئة بالأمل والرؤية العَميقة لأقولَ لكل فرد يُعنى باللغة العربية: أخي الإنسانَ العربيَّ والإنسان المُسْلمَ، إذا كنْتَ تحبُّ وجودَك الكريمَ فأعْطِ لغتك العربية خدْمة تنْطلقُ منك أنت وتديرُها بهمتك: كنْ قارئا منْ قراء العربية الفحول لتأكيد هويتكَ الحَضارية!؟ ولتكنْ قدوَة لأسْرتكَ في هذا الفعلِ الرّائد، وكنْ غيورا على لغتكَ العربية بعامة، فهي أنت، وأنت هي ! ثم احْملْ هذه اللغة، ولتكنْ موضوعَ حديثكَ في الحلِ والترْحال، عندئذ فقط تتنفسُ العربية الصُّعداءَ، ويبْدأ الأملُ بالإشراق، وسيَكونُ فعلكَ نموذجا للآخَرين، ولعَله ما أنْ يَمْضيَ القليلُ من الزمن حتى تصبحَ العربيّة لغة الجيل الجديد وديدَنَه وحياتَه الجديدة.

ولنكنْ صُرحاءَ، في هذا المَجال، ولنعترفْ بأننا، في العصرِ الذي نحْيا فيه، مُترددون أو غيرُ جادّين في مَشروع بناءِ لغةٍ عربيّة قويّة كالتي صنَعها الأجدادُ، فكان لهمْ بها صرحٌ ثقافيٌّ أكسبَنا وجُودا حضاريّا فذا يشهدُ على وُجوده وغناه ما تحتويه المَكتباتُ العالميّة من مَخطوطات وذخائرَ ووثائقَ يندرُ أن يكونَ لها مثيلٌ في العالم القديم والحديث. غيرَ أنَّ هذا الترددَ وضعفَ الإيمان بهذا المَشْروع الذي يتطلعُ إليْه مُفكرو الأمة وعُلماؤها للمحافظة على روحها ومَكانتها بين العالمين لا مُسَوِّغ لهُ لأنَّنا نمْلكُ المُقومات التي تُمكنُنا منْ صناعة مَجْد لغويٍّ مُعاصر وارث لذلك المجْد الذي تربى عليه نفرٌ من أبْنائنا، فكانوا بذلك طليعَة بانيَة جادّة تتطلعُ إلى ما ننادي به ونتطلعُ إليْه. فما الذي يَنْقصُنا لتحقيق النبوءة المَنْشودة في إعادة الحياة والقوّة والانتشار للغتنا الشريفة؟ إنّ ما نحْتاجُ إليه هو الإنسانُ القويُّ المُتشربُ لحَضارة أمّته، على مُسْتوى القيادة وعلى مُسْتوى الفرد العاديّ، ويحْملها رسالة خالدة تعْتز بلغتها العربيّة. ولعلَّ من بَدهيّات الأمور أننا إذا أرَدْنا صناعة هذا النمَط اللغويِّ الحَديث للغتنا العَرَبيّة كذلك الذي صَنعَه أجْدادُنا من توْفير المواد اللازمة لهذه الصناعَة والمُتمثلة في البنّاء ومَوادّ البناء، أمّا مَوادُّ البناء فهيَ مَوْجودة ومُتوافرةٌ، وعلى رأسها القرآنُ الكريمُ لأنَّ حفظَ العربيّة واستمرارَ وجودها إنما كان بفضْل القرآن الكريم، وكذلك الأدبُ العرَبيُّ الذي شكلتْ موادَّه بصمات الشخصية الحضارية للإنسان العربي ونمطه الإنساني، وأما البنّاءُ فهو ما نفتقرُ إليْه.

والبنّاءُ الذي يجبُ أن نصْنعَه من جديد هو ابننا أو ابنتنا ممَّن سيُشكلون الخلايا المُجْتمعيّة المُسْتقبلية، وهي الأسرُ المقدِّرة للغة وقيمتها في البناءِ الحضاريِّ المُسْتقبليِّ والمُمارسَة لها في خليتها الاجْتماعيّة الأولى. ولنْ يكونَ هذا مُمْكنا إلا باستنبات هذا النمط الباني بالتربيَة اللغوية الصحيحة المُتفقة مع مُواصفات مَنْ أبْدعوا في هذه الصِّناعة، وهم أجْدادُنا الذين أوْرَثونا هذه اللغة، ومع مُواصفات الترْبة اللغويّة المُناسبة لنمو اللغة وبثِّ الحياة فيها. فأجدادُنا صَنعوا لنا حَضارة ومَجْدا مُتألقا، فأيْنَ نحن من هذا المَجْد المُتألق؟! إنَّنا اسْتبْدلنا الذي هو أدْنى بالذي هو خيْر، ولذلك فلنَنْتظرْ غضبَ الله وسُخْطَه لأننا كفرْنا بآيات الله وقتلنا ما ورثناه بغيْر حق، وعَصَيْنا واعْتديْنا على لغتنا الجَميلة التي تختزنُ إرْثنا الحَضاري الخالد !!! أما الترْبة اللغويَّة المُناسبَة لنمو اللغة وبث الحَياة فيها فهي أسَرُنا ومعاهدُنا ومُؤسساتُنا المُحترمَة للغة العربية، الحريصة على ألفاظها وقواعدها، المُرَدِّدة لما ثبتَ على ألسنتنا من نصوص جميلة ذوات مَعان بديعة، فأينَ هذه الترْبة الصّالحَة في حياتنا المُعاصرة المُشْرَبَة باللغات العاميّة والأجْنبيّة من كل حدب وصوْب، وبالأغاني الغريبة المَسْعورة؟!! إنَّ الترْبة المُناسبَة للبناء اللغويِّ المَنْشود غيْرُ مَوْجودة إلا في جُزُر أسَريَّة أو مَدْرسيّة أو مُؤسَّسية قليلة تقاومُ الغرَقَ الذي يَنْتظرُها مُقاومَة باسلة نرْجو الله أنْ يُسَلمَها وينْصُرَها على هذا الطوفان المُدَمِّر للعَرَبيّة.

إذا أردْنا تحْصيلَ لغة عربيّة جيّدة فلا بُدَّ من توافر الشروط الملائمة للنمُو الصحِّيّ والميلادِ الطبيعيّ لنقطفَ ثمارا لغويّة صحيّة. وحتى نحصلَ على أجود الثمار اللغويّة لا بدَّ من توافر هذه الشروط المُلائمَة في البيت أولا، ولا بدَّ منْ قيام

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

الأبَوَيْن بإيجاد التربة اللغوية الصحيحة التي ينْبتُ فيها الوعيُ اللغويُّ ويتعمَّقُ في نفوس النشْءِ وألسنَتِهم حتى يرْضعَ هؤلاءِ الأبناءُ اللغة كما يَرْضعون اللبنَ من أثداءِ أمهاتهمْ أولا، ثم منْ آبائهمْ وإخوانهمْ حتى يغدوَ البيتُ خليّة لغويّة تعطيك اللغة العربية عَسَلا مُصَفّى. وعندَ تراكم هذا النمط اللغويّ الاجْتماعيّ في الأسَرِ فسيتخرجُ فيها السّائقُ الذي يُعْنى باللغة، والتاجرُ والمُعلمُ والطبيبُ والمُهندسُ والوزيرُ والرئيسُ وغيرُ هذا من ألوانِ النشاطِ الإنسانيّ في المُجْتمع. ومن أكبَرِ عُيوبنا في الحَياةِ المُعاصرة أننا نفضلُ الأجنبيَّ على الوَطنيّ، فكيْفَ نفضلُ اعْتناءَ أبْنائنا باللغة الأجنبية ونهملُ العرَبيّة وقرآنها العظيمَ وهو مُخُّ العربية الأولُ والأخيرُ!! لا يُمكنُ لأسْرَة تتربّى على غيرِ القرآنِ أنْ يكونَ لأبنائها فرْصة ناجحَة في إتقانِ العَرَبية. ومن الملاحظ إهمالُ كثيرٍ من الناس مسْألة السَّمْعِ اللغويّ، ففي السَّمْعِ اللغويّ أساسٌ مُهمٌ للتكوين اللغويّ الناجحِ.

وإني لأتساءلُ ما الذي جنيْناه من اقتدائِنا الأعْمى بالتربيةِ الغربيةِ التي لا تقيم للعربية أيَّ وزنٍ أو عنايةٍ أو رِعايةٍ بلْ تحاربُها هي، وتحاربُ كلّ ما اتصلَ بها ؟! إنَّنا لم نجْنِ سوى تخريب أجْيالنا جيلا وراءَ جيل، وقد أصْبَحَ هؤلاءِ الأجْيالُ مُترددين أو غيرَ مُؤمنين بصناعة لغة عربية قوية كتلك التي بناها أجْدادُنا، لأنهم، ببساطة متناهيَة، لمْ يَتَرَبَّوْا على أصْواتها ومُفرداتها وجُملها ومَعانيها ومَبانيها التي يجبُ، في الأصل، أنْ يتشربوها منْ ذخائرِ صرْحِنا الثقافيّ كقرآننا وأدَبنا الغنيّ. ولا عَجبَ منْ وجودِ هذه النتائج المُزرية، في اكْتساب لغَتنا القوْمية، كما ذكرنا في سياقِ هذا البحث، لأنّ اللغة الأجْنبية، بل قل: إن اللغات الأجْنبية احْتلتْ في نفوسهم موْقعَ اللغة العربية، وصارَ وليُّ الأمْرِ يطرَبُ لنجاح ابْنه في اللغة الأجنبيّة أكثرَ منْ نجاحه في العَرَبيّة. لقدْ شجّعونا على إرْسالِ أبْنائنا إلى الجامعات الغرْبيّة فاسْتجبْنا لهذا اسْتجابَة طائشَة، دونَ أدْنى احْتياط أو انتباه، فما كان منْ هؤلاءِ الخريجينَ، منْ تلكمُ الجامعات، إلا أنْ أصبحوا مُنْظرين للتربية في بلادنا، وأصْبحوا منْ صانعي القرارِ الرَّسْميّ، ولم يُجادلهم أحَدٌ في قراراتهم لأنَّ مُعظم مَنْ يُديرون مَراكز القرارِ في بلادِنا همْ خريجو تلك الجامعات.

ليْسَ لدَيْنا أيُّ اعْتراض على الاسْتفادة من الآخرين، بل هو واجبٌ، ولكن الاسْتفادَةَ يَجبُ أنْ تكونَ بالقدْرِ الذي يُقوّي قواعدَنا الفكريّة، ومُرتكزاتنا التي تحْفظ هُويتنا وشخْصيتنا، أمّا أنْ نُرسلَ أبناءَنا إلى الجامعات الغربية وهمْ غيرُ مُحصَّنين دينيا وثقافيّا وفكريّا ولغويّا فإنهم سيَعودون إلينا خناجرَ مسْمومَة، وهذه لا يفعَلها عاقلٌ على وجْه البَسيطة.

يَجبُ على أبناءِ الأمّة أنْ يُعِدوا أنفسَهم لهذا المشْروع اللغويّ الحَضاريّ الذي لا بُد أنْ تنْعقدَ ثمارُه في يوْم قادم إنْ شاءَ اللّه، ولنكنْ على أمل يتدفقُ في أعْماقِ قلوبنا، وليكنْ عمَلنا الصادقُ المُخْلصُ للغتنا وأمّتنا دالا على صدقِ التوجه، ولا بُدَّ لهذا كله أنْ يُثمرَ في يوْم ما، والشعوبُ تبْني حاضرَها على ومْضاتٍ من الأمَلِ الصادقِ المَشفوعِ بالعَمَلِ العلميِّ الصَّادقِ الدّؤوب كذلك، ولنتذكرْ دائما أنَّ قطراتِ الماءِ إذا تجمَّعتْ فإنها تُحدث سَيْلا جارفا.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

المراجع

١- رمضان عبد التواب، لحن العامة والتطور اللغوي، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٧م
٢- شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٨
٣- = = ، العصر العباسي الأول، = = = ، القاهرة، ١٩٦٦
٤- عبد الأمير شمس الدين، المذهب التربوي عند ابن جماعة، دار اقرأ للنشر والتوزيع، ١٩٨٦م
٥- عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (١٨٧٠-١٩٣٨)
٦- د.عبد الكريم مجاهد، علم اللسان العربي، منشورات جامعة القدس المفتوحة، القدس، ٢٠٠٩
٧- د.إسماعيل عمايرة، المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية العربية، دار الملاحي، إربد، ١٤٠٨ه -١٩٨٧م
٨- د.علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٣٨٨ه/ ١٩٦٨م
٩- فندريس، اللغة (ترجمة عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص)، مكتبة الأنجلو مصرية/القاهرة، ١٩٥٠م
١٠- د.محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر، دمشق، ١٤٠١ه
١١- مداخلة عن مناهج التعليم في الوطن العربي " بقلم: سالم مبارك الفلق، انظرْ: (alfalagg@yahoo.com).
١٢- د. يعقوب بكر، العربية لغة عالمية، نشر الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٦م

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2